منها ما هو واجب ومنها كفائي

حقوق المسلم على .. أخيه

حقوق المسلم على المسلم كثيرة، منها ما هو واجب عيني ، يجب على كل أحد ، فلو تركه أثم ، ومنها ما هو واجب كفائي ، إذا قام به البعض سقط إثمه عن الباقين ، ومنها ما هو مستحب غير واجب ، ولا يأثم المسلم بتركه .

روى البخاري (1240) ومسلم (2162) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (حقّ المسلم على المسلم خمس : ردّ السلام وعيادة المريض واتباع الجنائز وإجابة الدعوة وتشميت العاطس)

ورواه مسلم (2162) أيضا عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (حقّ المسلم على المسلم ستّ) قيل ما هنّ يا رسول الله : قال (إذا لقيته فسلّم عليه وإذا دعاك فأجبه وإذا استنصحك فانصح له وإذا عطس فحمد الله فسمّته وإذا مرض فعده وإذا مات فاتبعه)

قال الشوكاني رحمه الله :

« والمراد بقوله: (حقّ المسلم) أنه لا ينبغي تركه ويكون فعله إما واجبا أو مندوبا ندبا مؤكدا شبيها بالواجب الذي لا ينبغي تركه، ويكون استعماله في المعنيين من باب استعمال المشترك في معنييه، فإن الحقّ يستعمل في معنى الواجب، كذا ذكره ابن الأعرابي، وكذا يستعمل في معنى الثابت ومعنى اللازم ومعنى الصدق وغير ذلك وقال ابن بطال: المراد بالحق هنا الحرمة والصحبة. » انتهى من «نيل الأوطار» (4/21).

1 – فردّ السلام واجب إذا كان السلام على واحد ، وإذا كان على جماعة كان فرضا على الكفاية ، أما ابتداء السلام فالأصل فيه أنه سنة ، جاء في «الموسوعة الفقهية» (11/314) :

« ابتداء السلام سنّة مؤكّدة ، لقوله صلى الله عليه وسلم : (أفشوا السلام بينكم) ويجب الرّدّ إن كان السلام على واحد . وإن سلّم على جماعة فالرّدّ في حقهم فرض كفاية ، فإن ردّ أحدهم سقط الحرج عن الباقين ، وإن ردّ الجميع كانوا مؤدّين للفرض ، سواء ردّوا معا أو متعاقبين ، فإن امتنعوا كلهم أثموا لخبر : حقّ المسلم على المسلم خمس : ردّ السلام . . . » انتهى .

2 – وأما عيادة المريض ففرض كفاية ، قال الشيخ ابن عثيمين :

« عيادة المريض فرض كفاية » .

«مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين» (13 / 1085)

وراجع جواب السؤال رقم : (71968) .

3 – وأما تشييع الجنازة ففرض كفاية أيضا ، راجع جواب السؤال رقم : (67576) .

4 – وأما إجابة الدعوة : فإن كانت إلى وليمة عرس فالجمهور على وجوب إجابتها إلا لعذر شرعي . أما إن كانت لغير وليمة العرس فالجمهور على أنها مستحبة ، ولكن بشترط لإجابة الدعوة ـ عموما ـ شروط ، راجع لمعرفة ذلك بالتفصيل جواب السؤال رقم : (22006) .

5 – وأما تشميت العاطس فقد اختلف في حكمه .

جاء في «الموسوعة الفقهية» (4/22) : « وهذا التشميت سنّة عند الشافعيّة .

وفي قول للحنابلة وعند الحنفيّة هو واجب . وقال المالكيّة ، وهو المذهب عند الحنابلة بوجوبه على الكفاية . ونقل عن البيان أن الأشهر أنه فرض عين ، لحديث « كان حقا على كل مسلم سمعه أن يقول له : يرحمك الله » انتهى.

وأظهر الأقوال أنه واجب على من سمع حمد العاطس لله : لما رواه البخاري (6223) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إن الله يحب العطاس ويكره التثاؤب ، فإذا عطس فحمد الله فحق على كل مسلم سمعه أن يشمته) .

قال ابن القيم رحمه الله : وقد تقدم حديث أبي هريرة وفيه « فإذا عطس أحدكم ، وحمد الله ، كان حقا على كل مسلم سمعه أن يقول : يرحمك الله » . وترجم الترمذي على حديث أنس (باب ما جاء في إيجاب التشميت بحمد العاطس) وهذا يدل على أنه واجب عنده ، وهو الصواب ، للأحاديث الصريحة الظاهرة في الوجوب من غير معارض والله أعلم .

فمنها : حديث أبي هريرة ، وقد تقدم . ومنها : حديثه الآخر « خمس تجب للمسلم على أخيه » وقد تقدم . ومنها : حديث سالم بن عبيد ، وفيه « وليقل له من عنده : يرحمك الله » . ومنها : ما رواه الترمذي عن عليّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « للمسلم على المسلم ستّ بالمعروف : يسلم عليه إذا لقيه ، ويجيبه إذا دعاه ، ويشمته إذا عطس ويعوده إذا مرض ويتبع جنازته إذا مات ، ويحب له ما يحب لنفسه » وقال هذا حديث حسن قد روي من غير وجه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد تكلم بعضهم في الحارث الأعور ، وفي الباب عن أبي هريرة ، وأبي أيوب والبراء ، وأبي مسعود . ومنها : ما رواه الترمذي عن أبي أيوب ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إذا عطس أحدكم فليقل : الحمد لله ، وليقل : على كل حال ، وليقل الذي يرد عليه يرحمك الله ، وليقل هو : يهديكم الله ويصلح بالكم » .

فهذه أربع طرق من الدلالة ، أحدها : التصريح بثبوت وجوب التشميت بلفظه الصريح الذي لا يحتمل تأويلا . الثاني : إيجابه بلفظ الحق . الثالث : إيجابه بلفظة « على » الظاهرة في الوجوب . الرابع : الأمر به ، ولا ريب في إثبات واجبات كثيرة بدون هذه الطرق ، والله تعالى أعلم» انتهى من «حاشية ابن القيم على سنن أبي داود» (13/259) .

وقال أيضا : « فظاهر الحديث المبدوء به: أن التشميت فرض عين على كل من سمع العاطس يحمد الله، ولا يجزئ تشميت الواحد عنهم، وهذا أحد قولي العلماء، واختاره ابن أبي زيد، وأبو بكر بن العربي المالكيان، ولا دافع له.» انتهى من «زاد المعاد» (2/437) .

6 – أما نصحه إذا استنصحه : فالأظهر في النصيحة أنها واجبة على الكفاية .

قال ابن مفلح رحمه الله :

« وظاهر كلام أحمد والأصحاب وجوب النصح للمسلم ، وإن لم يسأله ذلك ، كما هو ظاهر الإخبار .. » انتهى من «الآداب الشرعية» لابن مفلح (1/307) .

وقال الملا علي القاري رحمه الله:

« (وإذا استنصحك) أي طلب منك النصيحة (فانصح له) وجوبا، وكذا يجب النصح وإن لم يستنصحه » انتهى من «مرقاة المفاتيح» (5/213)

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله : « وقد تبين أن معنى الحق هنا الوجوب ، خلافا لقول من بطال المراد حق الحرمة والصحبة والظاهر أن المراد به هنا وجوب الكفاية » انتهى من «فتح الباري» (3/113) .

ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون

اسم الله .. السميع

ومن أسماء الله الحسنى التي وردت في كتابه: «السميع»، قال بعضهم: ورد ذكر اسم الله «السميع» خمسا وأربعين مرة: قال تعالى: وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم [البقرة: 127]، وقال تعالى: قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير [المجادلة:1].

وسمعه تعالى نوعان:

الأول: سمعه لجميع الأصوات الظاهرة والباطنة، الخفية والجلية، وإحاطته التامة بها.

الثاني: سمع الإجابة منه للسائلين والداعين والعابدين، فيجيبهم ويثيبهم، ومنه قوله تعالى: إن ربي لسميع الدعاء [إبراهيم: 39]؛ أي: مجيب الدعاء، ومنه قول المصلي: «سمع الله لمن حمده»؛ أي: أجاب الله حمد من حمده، ودعاء من دعاه، كما قال النبي – صلى الله عليه وسلم –: ((إذا قال الإمام: سمع الله لمن حمده، فقولوا: اللهم ربنا لك الحمد))[2]، وفي رواية: ((يسمع الله لكم))[3]؛ أي: يجيبكم، فالسماع هنا بمعنى الإجابة والقبول، وفي الحديث الذي رواه الترمذي في سننه: ((اللهم إني أعوذ بك من دعاء لا يسمع))[4]، ومن آثار الإيمان بهذا الاسم العظيم:

أولا: إثبات صفة السمع له – سبحانه – كما وصف الله نفسه بذلك: قال تعالى: سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار [الرعد: 10]، وقال تعالى: إنه هو السميع البصير [الإسراء: 1].

وإن سألت عن سمعه، فهو السميع الذي قد كمل في سمعه، فاستوى في سمعه سر القول وجهره، وسع سمعه الأصوات، فلا تختلف عليه أصوات الخلق، ولا تشتبه عليه، ولا يشغله منها سمع عن سمع، ولا تغلطه المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين على الدوام، يسمع ضجيج الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات، بل هي عنده كلها كصوت واحد، كما أن خلق الخلق جميعهم وبعثهم عنده بمنزلة نفس واحدة[5]؛ قال ابن القيم –رحمه الله–:

وضجيج أصوات العباد بسمعه
ولديه لا يتشابه الصوتان

«ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون

اسم الله .. السميع

قال تعالى: يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن [الرحمن: 29].

ثانيا: أن سمع الله ليس كسمع أحد من خلقه، فإن الخلق وإن وصفوا بالسمع والبصر كما في قوله تعالى: إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا [الإنسان: 2]، إلا أن سمعهم وبصرهم ليس كخالقهم، قال تعالى: ليس كمثله شيء وهو السميع البصير [الشورى: 11]، روى الإمام أحمد في مسنده والبخاري في صحيحه تعليقا عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – تكلمه وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول، فأنزل الله – عز وجل –: قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها [المجادلة: 1]»[6].

وروى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي موسى الأشعري قال: كنا مع النبي – صلى الله عليه وسلم – في سفر، فكنا إذا علونا كبرنا، فقال النبي – صلى الله عليه وسلم –: ((أيها الناس، ارفقوا على أنفسكم؛ فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا، ولكن تدعون سميعا بصيرا))[7].

بيعة الرضوان في ميزان الإسلام

كان هناك عدة أمور ترتبت على عقد بيعة الرضوان هذه، وكانت ذات أثر ومعنى بالغ عند جميع المسلمين كما يلي:

أولا: بها خلاصة ما هو مطلوب من المؤمن في دنياه:

يقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 162]. فكل شيء في حياة المسلم هو لله رب العالمين، وفي سبيله حتى لحظة الموت، طاعة كاملة لله ولرسوله، وهذا أمر من الصعوبة بمكان.

فهذه مجموعة من المسلمين جاءت من المدينة إلى مكة لأداء العمرة، يتسلحون فقط بسلاح المسافر ولا مدد لهم؛ إذ المدينة على مسافة خمسمائة كيلو متر تقريبًا من هذا المكان، وكان الطبيعي أنهم إذا قاتلوا المشركين فإنهم جميعًا سيقتلون؛ إذ إنهم سيقاتلون جيشًا بعدة وعتاد، وفوق ذلك فهو على بُعد خطوات قليلة من المدد، كما أن قريشًا كان معها الأحابيش والقبائل الحليفة.

في هذه البيعة لم يفكر واحد من المسلمين في أولاده أو زوجته، لم يفكر أحدهم في تجارته أو في أعماله، لم يفكر أحدهم بالمرة في حياته، لم يقل أحد منهم أن ظروفه لا تسمح، بل لم يعقد أحد منهم هذه البيعة حرجًا من رسول الله ، أو حرجًا من المسلمين، إنما عقدوها جميعًا وهم صادقون راغبون، يقول الله I: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: 18].

فقد أطلع الله على قلوب كل من بايع، فعلم I أن هذه القلوب جميعها مخلصة مؤمنة، وكان هذا من الفتح المبين الذي ذكره الله في بداية سورة الفتح التي تحدثت عن غزوة الحديبية أو صلح الحديبية، حيث قال I: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: 1].

فإن يصرح رب العالمين بالرضا عن هذه المجموعة الكبيرة من البشر، والتي يبلغ عددها ألف وأربعمائة مسلم، وهم ما زالوا أحياء على وجه الأرض يُرزقون، لهو –والله– من الفتح المبين.

وأن تصل مجموعة من البشر إلى هذا الرقي وهذا الإخلاص وهذا الفقه والفهم، وهذا العمل بهذه الصورة إلى الدرجة التي ترضي رب العالمين I رضاءً تامًا يعبر عنه في كتابه الكريم، ونقرؤه في كتابه إلى يوم القيامة، هذا من الفتح المبين.

فكان لهذه البيعة حقيقة مكانتها وقيمتها في الميزان الإسلامي، وقد ظل هؤلاء الصحابة ألف وأربعمائة صحابي في عُرْف علماء الأمة من أعظم المسلمين درجة وإلى يوم القيامة، وهذا هو كلام الرسول وشهادته لهم، كما جاء في صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله أنه خاطبهم يوم الحديبية وقال لهم: «أَنْتُمُ الْيَوْمَ خَيْرُ أَهْلِ الْأَرْضِ»[4].

فكان هذا –إذن– هو أول ما ظهر في هذه البيعة، وهو التضحية والبذل والعطاء الكامل من الصحابة رضوان الله عليهم، وهو خلاصة ما هو مطلوب من المؤمن في دنياه.

ثانيًا: اهتزاز مكة من داخلها: هذا الموقف الذي أعلن فيه المسلمون تضحياتهم العظيمة، ورغبتهم الأكيدة في الموت هزّ مكة من داخلها هزة عنيفة، فمن ذا الذي يستطيع أن يقاتل قومًا يطلبون الموت؟! بماذا يهددهم ويخوفهم؟! أبالموت؟! فهذا هو مطلبهم؛ فقد بايعوا على أن يموتوا وعلى ألا يفروا حتى النهاية، حتى ولو كانوا عُزلا أو لم يكن معهم إلا سلاح بسيط.

وما من شك أن هذا الموقف قد هزّ مكة، وجعلها ترضخ للمفاوضات، وهي تريد أن يعود الرسول إلى المدينة بأي ثمن، حتى وإن انتقص هذا من كرامتهم، وهذا ما سنراه بعد ذلك في بنود معاهدة الصلح.

وهذا الموقف من قبل المسلمين، والذي هو من صفات الجيش المنصور، هو ما عبر عنه خالد بن الوليد بعد هذا الحدث بسنوات بكلمات قليلة، قد ذكرها لهرمز ملك الأبُلَّة عند بدايات فتح فارس، حين قال له: «جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون أنتم الحياة»[5].

فالجيش الذي يحب الموت من المستحيل أن يُهزم، وهذا درس من أعظم دروس الحديبية، وكان من أجله أن قررت قريش إبرام الصلح بكل ما فيه.

ثالثًا: أخذوا قرار الموت فلم يصابوا بسوء:

وهو أمر غريب حقًا، إذ لم يصب المسلمين سوءٌ عندما أخذوا قرار الموت وعدم الفرار، بينما أصابهم الموت في أُحُد واستشهد منهم سبعون رجلًا، وذلك حين أخذوا قرار الفرار (قرار الحياة) يوم أُحُد. وإنه لأمر عجيب، سبعمائة رجل في أحد يُقتل منهم سبعون، بينما ألف وأربعمائة في الحديبية لم يقتل منهم واحد، وهذا هو كلام أبي بكر الصديق حين قال: «احرص على الموت توهب لك الحياة»[6].

فالجيش الذي يريد الموت حقًا يهب له الله I الحياة، ومعها النصر والتمكين والسيادة، أما الجيش الذي يريد العيش أيًا كان نوعه حتى لو كان رخيصًا أو ذليلًا، فهذا الجيش يكتب الله I عليه الموت. رابعًا: التصريح بالرضا عن الأحياء:

وهذا أمر مهم جدًا ولافت للنظر، فالله I قد صرح بأنه رضي عن أولئك الذين قاموا بالبيعة، مع أنهم ما زالوا على قيد الحياة، ومن الممكن بعد ذلك أن يرتكبوا ذنوبًا أو أخطاء. فإذا كان الله I يعلم الغيب، ويعلم أن هؤلاء سيفعلون كذا وكذا، إلا أنه من المؤكد أنهم سيقعون في أخطاء وذلك لكونهم بشرًا، وكل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون.

بيْدَ أننا نفهم من هذا معنى في غاية الأهمية، وهو أنه من الممكن أن يكون هناك موقف واحد في حياة المسلم لصالح المسلمين أو لصالح الأمة، يكون من الثقل بحيث إنه لا يُعدل به ذنبٌ بعد ذلك.

وهذا بالتأكيد ليس دعوة لاقتراف الذنوب، ولكنها دعوة للأعمال الصالحة التي تثقل في ميزان المسلم. ومثل هذا قد رأيناه أكثر من مرة في السيرة النبوية، كان منه –على سبيل المثال– صنيع عثمان بن عفان في تبوك –سنتحدث عنه بالتفصيل بعد ذلك بمشيئة الله– والذي قال عنه رسول الله يومها: «مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا فَعَلَ بَعْدَ الْيَوْمِ»[7]. فكان هناك موقف واحد في حياة عثمان لو وضع في كفة ووضعت بقية الذنوب في كفة أخرى، فسترجح كفة هذا الموقف الكفة الأخرى، وبهذا سينجو عثمان.

وقفة

وهنا نريد أن نقف وقفة ويسأل كل منا نفسه: هل عندي موقف أعتقد أنه سيكون سببًا لنجاتي يوم القيامة؟

فكلنا يصلي ويصوم، لكن هل هناك عمل في حياتنا يخدم الأمة الإسلامية، ونستطيع أن نحمله بين أيدينا يوم القيامة معتقدين تمام الاعتقاد يومها أنه مُنجِّينا من النار؟

فما حدث في بيعة الرضوان هو عمل واحد لكل صحابي دار في ساعة أو ساعتين من الزمن، لكنه ظل حدثًا يقتدي به المسلمون ويتعلمون منه، بل ويحفظ في كتاب رب العالمين I وإلى قيام الساعة، وإننا لنريد لحظات صدق من هذا النوع من الأعمال، والتي يمكن أن تنجينا في الدنيا والآخرة.